

## مقدمة

### اكتشاف العبودية في الجوار

عادة ما تزدهر عملية الاتجار بالبشر في الخفاء. ويمكننا إغماض أعيننا عنها لأنها تحدث لأناس آخرين في أماكن بعيدة. وبعقادي أن هذه العملية تُعدّ جريمة تشمل كل بلد في هذا العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة. هيلاري كلنتون، وزيرة الخارجية الأمريكية (1).

يوجد في هذا العالم اليوم (2) أكثر من 30 مليون إنسان يُعاملون معاملة العبيد؛ حيث تُجبر الفتيات والأولاد والنساء والرجال من مختلف الأعمار على العمل في أكواخ النسيج في نيبال، وبيع أجسادهم في مواخير البغاء في روما، وتكسير الصخور في مقالع الحجارة في باكستان، وخوض معارك في غابات إفريقية، وخياطة الثياب في مصانع الملابس في كاليفورنيا.

وإذا ما تركت وسط أي مدينة كبرى في العالم، وذهبت إلى أماكن الاكتظاظ السكاني، والأماكن الخلفية فيها، فمن المحتمل أن تجد التجارة بالبشر عملية شائعة هناك. بل وربما تكتشف أن العبودية تُمارس في جوار بيتك، وحتى في حديقتك الخلفية.

في منطقة جون سان فرانيسكو، اعتدت وزوجتي على تناول وجبة العشاء في مطعم هندي قريب من بيتنا، ولكننا لم نعرف أن من يطبخون عشاءنا ويقدمونه لنا، ويفسلون الصحون في مطعم باساند مدراس كانوا عبيدًا.

ولم تُكتشف شبكة الاتجار بالبشر في هذه المنطقة إلا بعد وقوع حادث مأساوي، وذلك عندما عثرت فتاة على زميلتها في السكن؛ شانتى براتيباتي، 17 عامًا، وشقيقتها لاليتا، 15 عامًا، مُغمى عليهما.

اتصلت الفتاة بمالك المطعم الذي يعملُ لديه، واسمه لأكير يدي بُندا، والذي يملك عدة مطاعم وأكثر من 1000 شقة سكنية في كارولينا الشمالية. وعندما وصله إلى المكان، تبين أن الإغماء كان بسبب استنشاق غاز ثاني أكسيد الكربون المنبعث من فتحة تهوية مغلقة. وبدلاً من نقل الفتاتين إلى المستشفى، لهُمَا وأصدقاء له في سجادة، وألقوا بهما في شاحنة. وعندما حاول بُندا ومجموعته وضع الفتاة التي أبلغت عن الحادث في الشاحنة، قاومتهم بشدة ورفضت ركوبها. وللمصادفة، مرّت مارسيا بولي، وهي إحدى الساكنات في العمارة، بجانب الشاحنة، وشاهدت عدة رجال يحاولون إدخال السجادة الملفوفة فيها، في حين كانت رجل إنسان تتدلى من أحد أطرافها. وعندما أبطأت المرأة من سرعة سيارتها لتتحقق مما يجري، أصيبت بالرعب وهي ترى رجالاً يحاولون إجبار فتاة على ركوب الشاحنة. قفزت بولي من سيارتها، وحاولت ردع الرجال عن فعلتهم، ولكن دون جدوى، فما كان منها إلا إيقاف إحدى السيارات المارة، والطلب إلى سائقها الاتصال برقم شرطة النجدة 911، وإبلاغهم عن عملية اختطاف تجري هنا. بعدئذ، وصلت سيارة الشرطة بسرعة، واعتقلت بُندا وأصدقاءه.

لم تستعد شانتى براتيياتي وعبها أبداً، وتوفيت في أحد المشافي المحلية. وتبين من التحقيقات أن بُندا وعدة أفراد من عائلته استخدموا تأشيرات دخول مزوّرة، وهويات شخصية مزيفة لتهريب مئات البالغين والأطفال من الهند إلى داخل الولايات المتحدة. وفي حالات كثيرة، تمكن بُندا من الحصول على تأشيرات الدخول بدعوى أن من يطلبها لهم خبراء تقنيين مطلوبين لشركة برامج حاسوبية. وفي الحقيقة أن بُندا كان يستغلهم في مطاعمه وشركاته المتعددة؛ خدماً وطباخين وغسالين. لقد كان يجبرهم على العمل لساعات طويلة وبأجور متدنية جداً، وكانوا يدفعون النقود التي يكسبونها لدفع إيجار الشقق التي يؤجرها لهم. وكان يهددهم بتسليمهم إلى السلطات بصفتهم مهاجرين غير شرعيين إذا ما حاولوا الهرب.

لم تكن قضية بُدأ حالة شاذة ولا فريدة؛ فكما حدثت في المنطقة التي أعيش فيها، فإنها قد تحدثت في منطقتك أيضاً، خاصة إذا علمت أن هناك أكثر من مئة ألف شخص يعيشون حياة عبودية في الولايات المتحدة حالياً، كما يجري تهريب نحو سبعة عشر ألف مهاجر غير شرعي عبر الحدود سنوياً<sup>(3)</sup>. وقد أُحيلت الكثير من قضايا الاتجار بالبشر إلى المحاكم الأمريكية في كثير من المدن، وفي كل ولاية من الولايات الأمريكية تقريباً.

ومثلما كان حال العبيد الذين نُقلوا إلى شواطئ أمريكا قبل مئتي عام، فإن عبيد اليوم محرومون من حرية التحكم بمصائرهم؛ فهم يُجبرون على أداء أعمال لصالح مَنْ يستعبدهم. وإذا ما حاولوا الهروب من قيود أسيادهم، فإنهم وعائلاتهم قد يتعرضون للأذى والانتقام.

وقد اتضح حجم أزمة الاتجار بالبشر على مستوى العالم عندما تحدث الرئيس جورج بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر 2003، حيث قال: في كل عام، يتم شراء وبيع أو تهريب ما بين 800000 إلى 900000 إنسان عبر الحدود الدولية العالمية. وشدّد على أن جريمة الاتجار بالبشر لأي سبب كان يجب ألا تُعطى الفرصة للازدهار في عصرنا الحالي<sup>(4)</sup>. كما أشار إلى أن هذه التجارة تستهدف النساء والأطفال الضعفاء، وتغذي شبكة الجريمة المنظمة التي تهدد الأمن العالمي.

وفي الحقيقة أن الرئيس بوش لم يبالغ في وصف الأزمة التي وصلت إلى حد خطير منذ إلقاء خطابه في عام 2003، ذلك أن عملية الاتجار بالبشر تنافس حالياً تهريب المخدرات، وتجارة السلاح غير المشروعة ضمن الأنشطة الإجرامية في العالم. وجاء في تقرير لمنظمة العمل الدولية أن ضحايا العمل القسري يُحرمون من أكثر من عشرين بليون دولار من أجورهم، ولا يشمل هذا الرقم ضحايا تجارة الجنس<sup>(5)</sup>.

وإقراراً من الكونغرس الأمريكي في أن الاتّجار بالبشر أصبح خارجاً عن السيطرة، فقد استحدث منصباً رفيعاً في وزارة الخارجية للإشراف على محاربة هذه العملية. ونتيجة لذلك، عيّن الرئيس بوش لهذا المنصب عضو الكونغرس الأسبق جون ميلر في عام 2003 برتبة سفير. وخلفه في هذا المنصب السفير لويس سببكاكا.

إنّ مهمة هذا المكتب تتركز في مراقبة الاتّجار بالبشر ومحاربتة، وكذلك مساعدة الحكومات وتحفيزها على وقف أي تورط في تجارة الرقيق العالمية. ومن أجل هذه الغاية، ينشر المكتب تقريراً عن الاتّجار بالبشر. وقد أورد أول تقرير في عام 2001 أسماء 82 دولة فقط، مرتبة حسب جهودها في محاربة الاتّجار بالبشر على أرضها، في حين ضم تقرير عام 2009 أسماء 175 دولة<sup>(6)</sup>.

ومع أنه لا توجد دولة في العالم ترغب في أن يُشار إليها بأنها ملجأ للمستعبدين والمُهرَّبين، إلا أن هناك 145 دولة من دول العالم جاءت في الترتيب الثاني أو أقل فيما يتعلق بجهود محاربة الاتّجار بالبشر. وربما تكون هذه الدول مصدر هذه التجارة، أو نقطة عبور لها، أو الوجهة النهائية لضحايا هذه العملية. وفي بعض الحالات، تكون هذه الدول قاعدة لهذه الأنشطة مجتمعة؛ مصدرًا وعبورًا ومُستقرًا. وتشير الدراسات المكثفة التي تجريها وزارة الخارجية الأمريكية إلى أن هذه الآفة متفشية في دول العالم قاطبة، بما في ذلك الولايات المتحدة نفسها.

وكثيراً ما تكون ردة فعل بعض الناس عنيفة عند سماعهم استخدام كلمة العبودية لوصف طرق الاستغلال الحديثة وأساليبه؛ لأن العقل الجمعي الأوروبي مُشبع بفكرة أن العبودية انتهت في القرن التاسع عشر. ويبدو من الطبيعي جداً أن تقرأ في الصحف وصفاً لأوضاع تشبه ظروف العبودية في أحد مناجم النحاس في بوليفيا؛ حيث يُختطف العمال، ويُجبرون على العمل بالسخرة من دون أجر، ويُمنعون من مغادرة المنجم أيضاً. فلم يشير هذا الكاتب إلى الأوضاع التي يعيشها

العمال كما لو أنها من أصناف العبودية؟ إنَّ السبب في ذلك هو أن الكاتب مقتنع بالأسطورة الثقافية القائلة بأن العبودية الحقيقية قد اختفت منذ زمن بعيد.

ومما لا شك فيه أنه كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم في عام 1833، عندما أقرَّ مجلس العموم البريطاني قانون إلغاء العبودية، والذي بموجبه أعاد الحرية إلى العبيد جميعهم الذين كانوا محتجزين أسرى في أنحاء الإمبراطورية البريطانية. كما أن التعديل الثالث عشر على الدستور الأمريكي الذي أقرَّ في عام 1865 في نهاية الحرب الأهلية، لم يترك أي غموض فيما يتعلق بالوضع القانوني للعبيد في أمريكا، حيث جاء في النص: (لن يكون هناك أي وجود للعبودية أو الخدمة غير الطوعية داخل الولايات المتحدة، أو أي مكان يتبع سلطات هذه الولايات).

وفي الحقيقة أن سنَّ القوانين التي تجرّم تجارة العبيد وتحرمها كان إنجازاً كبيراً لقضية الحرية الإنسانية. ومع أن العبودية استمرت لعدة عقود بعد ذلك، إلا أن هذه القوانين التي انتشرت في دول العالم كلّها تقريباً، أعطت المناهضين للعبودية أداة فاعلة لمحاربة من يستعبدون الناس بممارسات لا إنسانية.

ومما يؤسف له أننا نرى اليوم عودة هذه السوق السوداء وقد عادت إلى الظهور مرة أخرى. ويشترك في هذا المشروع الإجرامي أشرار محليون، وشبكات دولية متطورة. كما يشارك فساد القائمين على تطبيق القانون، والمسؤولون الحكوميون بدور رئيس في رواج هذه السوق. إنَّ الاتجار بالبشر لا ينحصر في منطقة بعينها في العالم؛ فهذه التجارة لا تحترم حدوداً. ولهذا، لا يمكن إلغاء العبودية الجديدة بمجرد جرة قلم مثلما فعل أبراهام لينكولن عندما وقع إعلان تحرير العبيد.

فالاتحاد الأوروبي مثلاً، يواجه صعوبة في كيفية وقف تدفق مئة وعشرين ألف امرأة وطفل يُهرَّبون إلى دول الاتحاد كل عام. ويختطف معظم هؤلاء العبيد من إفريقية، أو من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة، ويهرَّبون عبر الحدود

الممتدة. وينتهي 90% من هؤلاء المهربيين في مواخير تجارة الجنس الأوروبية المتفشية<sup>(7)</sup>.

في عام 2002، أبدى وزراء الاتحاد الأوروبي اهتماماً بمحاربة تجارة العبيد، عندما طلبوا من جميع الأعضاء تطبيق (معاهدة) بروتوكول باليرمو، وهي المبادرة التي اتخذتها الأمم المتحدة لاعتماد إجراءات فاعلة لمحاربة الاتجار بالبشر عبر الحدود. وقد أطلقت معظم الدول الأوروبية حملات توعية طموحة، ورصدت ميزانيات لوكالات محاربة التهريب. ورغم كل هذا، فقد استطاع المهربيون المحافظة على تدفق منتظم لموجات جديدة من عبيد تجارة الجنس إلى المنطقة. وقد اعترف بهذا الوضع وزير خارجية الاتحاد بينتيا فيريرو - والندر في عام 2006، بقوله: على الرغم من الجهود الجبارة لمعالجة هذه المشكلة، إلا أن الحقيقة المقلقة هي أن تجارة تهريب البشر تدرّ ربحاً أكثر من تجارة تهريب السلاح أحياناً<sup>(8)</sup>.

وفي الواقع، أن عدد العبيد الذين يقعون في مصائد الرق اليوم أكثر من أولئك الذين كانوا يُستبدلون في تجارة العبيد عبر الأطلسي، والتي استمرت لأربعة قرون. ولا يمكن لأحد الشعور بقسوة هذه التجارة ووحشيتها أكثر من أطفال الدول النامية الذين يقعون فريسة لصائدي العبيد.

في عام 2004، حملت دراسة للأمم المتحدة عنوان عشرة ملايين طفل يجري استغلالهم للأعمال المنزلية، وهو خلاصة تقرير عن استغلال الأطفال عالمياً. وهذا العنوان يغني عن الشرح. وجاء في التقرير أن سبعمئة ألف طفل يُجبرون على العمل في المنازل في إندونيسيا وحدها. وهناك أرقام مذهلة أخرى؛ ففي البرازيل (559.000)، وفي باكستان (264.000)، وفي هايتي (250.000)، وفي كينيا (200.000). ويشير تقرير الأمم المتحدة إلى أن الأطفال يظلون في الخدمة لفترات زمنية طويلة بسبب عدم اكتشاف ما هم عليه من عبودية من قبل

أحد؛ فهؤلاء الصغار غالباً ما يكونون غير مرتبين لمجتمعاتهم، ويظلون يكدحون لساعات طويلة دون أجر، أو مقابل أجر لا يُذكر، كما أنّهم محرومون من فرص اللهو والتعليم<sup>(9)</sup>.

وغالباً ما يُرفق مُلصق غير مرئي بأوصاف العبودية الحديثة. ومثلما كنت لا أشك في أن مطعمي المفضل كان ملجأً لشبكة تهريب، فمن المحتمل أننا نصادف العبودية في طريقنا كل يوم دون أن ننتبه إليها؛ فقد نمرّ بموقع إنشاء دون أن يخطر ببالنا فيما إذا كان العمال هناك يعملون بمحض إرادتهم أم رغماً عنهم. أو ربما نقود سيارتنا في شوارع المدينة ليلاً، ونشاهد فتيات صغيرات يبعن أجسادهن في إحدى زوايا الشارع، ونتساءل: كيف يمكن لهن اختيار مثل هذه الحياة!

وهنا تكمن المفارقة؛ فالعبودية ليست مخفية في الواقع، بل هي مرئية للجميع باستثناء حالات نادرة. وفي الحقيقة، فإننا لا نتوقع وجودها في أماكن تحترم نفسها.

في عام 2009، وفي بلدة وول نت كريك الريفية الحاملة، في كاليفورنيا، أدينت وكالة عقارات وأم لثلاثة أطفال في قضية عبودية منزلية Walnut Creek). وجاء في حيثيات القضية أن مايل دي لاروزا دان، 46 عاماً، أجبرت امرأة شابة من البيرو على الطبخ، والغسيل، ورعاية أطفالها الصغار مدة عامين. وقد أحضرت دان تلك المرأة إلى الولايات المتحدة بأعذار كاذبة، وصادرت جواز سفرها، وأوهمتها بأنها سوف تتهمها بالسرقة إذا ما حاولت الهرب. وقد كانت تلك المرأة تعمل 15 ساعة يومياً طوال الأسبوع. وفي المساء، تطرح نفسها على أرضية غرفة المعيشة. ولم تكتف دان بذلك، بل منعتها من مشاهدة محطات التلفاز الأسبانية، والإنجليزية، وحرمتها من كل وسيلة اتصال بأهلها في البيرو.

ولن نندهش إذا ما علمنا بأن الضالعين في هذه التجارة يجبرون الأطفال على أعمال السخرة في مزارع الكاكاو في ساحل العاج<sup>(10)</sup>، ولكن قد لا يخطر ببالنا أن يقوم شخص على قدر كبير من الأهمية بممارسة هذه الفعلة الشنيعة؛ فكيم ميتسون تخجل من الظهور في مجتمعها في منطقة نيوجانلد، في الجزء الشمالي الغربي للولايات المتحدة، بعد اكتشاف أن كاهن الكنيسة المحلية في قرية ريفية بالقرب من ماساشوسيتس قد اتخذها جارية مستعبدة لممارسة الجنس مدة خمس سنوات دون أن يثير حوله أي شكوك داخل المجتمع.

كان والدا كيم يعيشان في مخيم للاجئين التبتيين المنفيين في شمال الهند. وعندما بلغت سنّ المراهقة، عرفها زوج أختها على كاهن أمريكي كان يزور المنطقة. وقد وعد الكاهن المبجل أن يأخذ كيم إلى الولايات المتحدة، حيث سيوفر لها تعليمًا منتظمًا وفرصًا لتحسين حياتها. وتقول كيم: لقد وعد والديّ بأنه سوف يعاملني مثل ابنته تمامًا<sup>(11)</sup>.

وبدوره، ظل زوج أختها يصر على عائلتها لتسمح لها بالذهاب، حتى أنه عرض مرافقتها إلى مدينة دهلي للمساعدة في الحصول على تأشيرة السفر إلى الولايات المتحدة. وأخيرا، توصل زوج أختها إلى تسوية مالية مع الكاهن لتحرير كيم.

عندما وصلت كيم إلى الولايات المتحدة، كان عمرها 16 عامًا، وعاشت هناك حياة مزدوجة. كان كل شيء يبدو طبيعيًا بالنسبة للمشاهد العادي؛ كانت كيم تذهب إلى المدرسة الثانوية المحلية، وشاركت في فريق سباق المضمار، وكانت تحضر صلاة الأحد في الكنيسة. وكان لدى الكاهن زوجة وابنة بالتبني تعيشان معه في البيت نفسه. أما خلف الأبواب المغلقة، فقد كانت كيم خادمة المنزل؛ تقوم بجميع أعمال الطهي، وتنظف الملابس وتكويها، بل وتقوم بتنظيف أرضية الكنيسة أيضًا.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كان يمارس الجنس معها طوال خمس سنوات. وهددها بسجن عائلتها التي ظلت في الهند في حال أبلغت زملاءها في المدرسة عن معاملته لها. ولهذا، كظمت كيم ألمها بصمت. في حين لم يكلف أي إنسان في المجتمع نفسه السؤال عن حياتها. لقد كان كل شخص يثق بنبأ الكاهن الحسنة. وكما وصفته كيم: كان ماهراً في التضييل. لقد كان الكاهن أحد أعمدة المجتمع الذي ينظر إليّ؛ طفلة فقيرة من العالم الثالث حالفها الحظ لتحظى بكرمه.

وأخيراً، وعندما بلغت كيم من العمر واحداً وعشرين عاماً، تمكنت من الخلاص من سجن معذبها. في البداية، فكرت بالهرب وعدم العودة أبداً، وتنتهي القصة هنا. إلا أنها تلقت خبراً من عائلتها في الهند يفيد بأن الكاهن قد هرب اثنتين من بنات عمها إلى الولايات المتحدة لتحلن مكانها في المنزل. عندها، جمعت كيم كل ما تملكه من شجاعة ووشت به إلى الشرطة. عندئذ، اعتقل الكاهن، وحوكم، وسجن. أمّا كيم فقد افتتحت بعد ذلك مركزاً للبيع بالجملة خاصاً بها، في حين تخصص جزءاً من وقتها لمنع وقوع نساء آخر ضحية للاستغلال الجنسي.

وتعدّ عناصر مأساة كيم من الأمور الشائعة والمشاركة في تجارة الرق الحديثة. فقد كانت صغيرة في بيئة انتقالية غير مستقرة (مخيم لاجئين). وقد تأمر المهرب (الكاهن) مع شخص آخر قريب من العائلة (زوج الأخت) لاقتلاعها من مجتمعها والتحكم بحياتها. وجرى تهريبها إلى بلد آخر لا تقفه ثقافته ولا قوانينه. كما وهُدّت بالحاق الأذى بعائلتها إن رفضت التعاون بصورة كاملة. ونتيجة لذلك، استغلها سجانها جنسياً واحتكر عملها. وعندما هربت، سارع تاجر الرقيق لإيجاد فتاتين أخريين تحلان مكانها.

وفي أثناء إعداد هذا الكتاب، أجريت مئات المقابلات مع ضحايا تجارة الرقيق من الولايات المتحدة، والمكسيك، والصين، وكوريا، والفلبين، وكامبوديا،

وتايلند، والبيرو، والهند، وأوغندا، وجنوب إفريقيا ودول عديدة في أوروبا الشرقية. ومثل هذه القصة تتكرر مرة تلو أخرى. وقد وجدت أن الضحايا الذين انتزعوا من الدول الفقيرة، وهُربوا عبر الحدود الدولية كانوا 80% من الإناث و50% من الأطفال<sup>(12)</sup>. لقد أُرسِلوا إلى أماكن غير مألوفة لديهم، واحتجزوا فيها عبيدا في غياب الحماية القانونية والعائلية. وفي الحقيقة أن الانتظام في مسار القصة يؤكد تشابه الآليات الشاملة لهذه الصناعة العالمية.

ومثل أي سوق تجارية أخرى، تخضع تجارة الرق لمبدأي العرض والطلب. وعليه، فإنَّ عصابات الإجرام هذه تجنى مبالغ ضخمة من العمل غير مدفوع الأجر؛ فإنَّ لم تدفع أجراً للعمال، فستكون تكلفة إنتاج البضائع لديك أقل. وكذلك في حال العبودية الجنسية، أو أعمال السخرة المنزلية، فإنك تحصل على خدمات بشرية ذات قيمة عالية بتكلفة أقل أيضا. وبسبب هذه المزايا المالية، يستطيع تجار الرقيق أن ينافسوا بنجاح أي سوق أخرى. وسوف يرتفع هامش الربح وفق ارتفاع الطلب.

ونحن قد لا ندرك كيف يرفع كل واحد منا الطلب ضمن مسار اليوم العادي. ويعبّر كيفين بيلز عن هذه الارتباطات التجارية بقوله: ربما يكون العبيد في باكستان قد صنعوا الحذاء الذي تلبسه، ونسجوا السجادة التي تقف عليها. وقد يكون العبيد في الهند هم الذين خاطوا القميص الذي ترتديه، وصلقوا الخاتم الذي تضعه في إصبعك<sup>(13)</sup>.

ومن أجل توافد منتظم لضحايا جدد، يعتمد محتكرو العبيد على تجار الرقيق لملء مخزون العرض لديهم. ويمكن أن يكون تاجر الرقيق شركة توظيف، أو شخصا يقوم بعملية التهريب، وغالبا ما يقوم الأفراد بالدورين معاً؛ التجارة والتهريب. إنهم لا يواجهون مشكلة في تلبية الطلب إلا في حالتين؛ الأولى عند شح الموارد وندرة العثور على فرائس جدد، والأخرى عندما تُهدد فعلتهم بخطر

حقيقيّ. وهاتان الحالتان لا مكان لهما في عالمنا الحالي. بل على العكس من ذلك؛ هناك فائض من المُجندّين المحتملين، إضافة إلى أن فرصة الخطورة شبه منعدمة. وعليه، فإن هذه التجارة في تزايد مستمر. ويضمن نقشي الفقر، والفروق الطبقيّة، وجود خزان من المجندّين بعمق المحيط. فقد يلجأ أولياء الأمور الذين يعانون من النفاقة إلى بيع أطفالهم، أو أنهم معرضون لعمليات النصب والاحتيال التي تسمح لتجار الرقيق بالتحكم بحياة أبنائهم وبناتهم. وقد ترضخ الفتيات الصغيرات في المجتمعات الفقيرة إلى القبول بالعمل في أماكن بعيدة مع ما يرافق ذلك من مخاطر محتملة. ويكون الفقراء مستعدين لقبول قرض يمكن أن يستغله تجار الرقيق لاحقاً لسلب حريتهم. ولهذا، فإن هذه المسارات جميعها تحمل معها أعداداً كبيرة من الضحايا الغافلين الذين يتحولون إلى بضاعة بثمن بخس في سوق عرض الرقيق.

يقول السيناتور سام براونباك عن ولاية كنساس: إن جانب العرض من المعادلة مظلم إلى حد كبير. ففي العالم اليوم خمسون مليون شخص مشرد ولاجئ. ويوفر هذا الخزان من المشردين فرصة مواتية لاستغلالهم من تجار الرقيق<sup>(14)</sup>.

في مرحلة الاقتصاد الزراعي الأمريكي، كان تجار الرقيق يعدّون امتلاك العبيد استثماراً. وكانت تكلفة جمع العبيد، ونقلهم، وإعدادهم للخدمة قبل وصول الوجهة النهائية مكلفة جداً. ومع أن المالك كان يعامل العبد معاملة الحيوان عادة، إلا أنها تشبه معاملة ثور غالي الثمن. وكان المالك يهدف إلى استرجاع قيمة استثماره طوال الفترة الزمنية لحياة العبد. ولهذا، كان إثبات الملكية القانونية يخدم هدفاً مهماً.

وفي تجارة الرق الحديثة، يؤدي التضخم الحالي في عدد العبيد، والقدرة على نقلهم إلى مسافات بعيدة في فترة زمنية قصيرة نسبياً، إلى تغيير اقتصاديات

ملكية العبيد إلى درجة كبيرة. وبما أن التكاليف تنخفض بسرعة، فإن العبد لم يعد استثماراً مجدياً على المدى الطويل. وهناك قضية تكاد لا تذكر وهي أن ملكية العبيد في الدول جميعها غير قانونية. وليس هناك ما يغري المالك بالاهتمام كثيراً بصحة عبده. إن وصف العبد الحالي بأنه شيء سهل رميه والتخلص منه هو وصف صحيح؛ إنه بطارية مستهلكة. فإن لم تعد هناك فائدة تُرجى منه، فيمكن الحصول على عبد آخر زهيد الثمن.<sup>(15)</sup>

وعلى الرغم من هذه التوجهات الطارئة في الأسواق العالمية، إلا أن الأشكال التقليدية للعبودية لا تزال قائمة. فقد وُجدت أعمال السخرة من أجل ردّ الدين لقرون طويلة، وما تزال حتى اليوم من أكثر أشكال العبودية شيوعاً. ويحدث هذا الفعل الاستعبادي عندما يقع شخص ما تحت سيطرة أحد الملاكين الأثرياء إثر استدانة مبلغ مالي قليل منه. بعدئذٍ، يضيف الثري فوائد ربوية عالية ومصاريف إضافية إلى القرض لدرجة يستحيل فيها على المدين سداه. وقد يقضي عبيد الدين حياتهم كاملة في خدمة مستعبد واحد، بل وقد ينتقل التزامهم هذا إلى أحفادهم.

وما حالة بُندا إلا خير مثال على هذا العمل الاستعبادي؛ إنه عبد صادفته في أثناء رحلتي إلى الهند. لقد وقع بُندا ضحية لصاحب مطحنة أرز، أعطى الفلاحين قروضاً صغيرة، ومن ثم استعبد بها القرية كلها. كان الفلاحون يكدحون طوال 18 ساعة يومياً، ويمنعون من مغادرة المكان. وفي أحد الأيام، وبعد سنوات من الاضطهاد والقهر، لم تستطع زوجة بُندا مواصلة تحمل هذه المعاناة فأقدمت على الانتحار. وظل بُندا ينوء تحت عبء الألم لفقدان زوجته. وفي يوم ما، طرح الخوف جانباً عندما رأى باباً مفتوحاً، فولّى هارباً.

ولأن مالك المطحنة لا يتساهل مع أي تمرد أو عصيان، فقد أرسل صائدي الجوائز يتتبعون أثره فأمسكوه، وأعادوه إلى المطحنة، وأحضره أمام المالك الذي

جمع العبيد كلهم في ساحة المطحنة. ولجعله عبرة لمن يعتبر، ظل المالك يجلد بُندا بعضا حتى أوشك على الهلاك، ثم قيده وهو مغمى عليه، وربطه إلى جدار في مبنى نوم العبيد. وأصبح ذلك المكان سريره لما تبقى من عمره في مطحنة الأرز تلك. وكان يقوم بعمله اليومي، ومن ثمَّ يعود ثانية إلى مَربطه.

إلا أن مأساة بُندا انتهت نهاية سعيدة؛ فقد شنت منظمة مناهضة للرق تدعى بعثة العدل الدولية International Justice Mission = IJM غارة على مطحنة الأرز وحررت بُندا وجميع أفراد قريته. واعتقلت الشرطة صاحب المطحنة، وقدم للمحاكمة على جرائمه.

وفي الحقيقة أن هذا الحدث كان المفاجأة غير المتوقعة في رحلتي لاستقصاء ظهور العبودية الحديثة. وقد وُطنت نفسي عاطفياً للغوص في أعماق القنوط واليأس. وحتى أكون صادقاً، فقد توقفت في بعض المحطات الكئيبة في أثناء رحلتي. لقد تألمت كثيراً في يوم استخفيت فيه لاستقصاء أحد بيوت الدعارة في مدينة فنوم بنه في كمبوديا. في ذلك اليوم، طلب إلي صاحب الماخور اختيار واحدة من بين مجموعة فتيات صغيرات السنّ، لا تتجاوز أعمارهن 13 سنة، تكسّن أمامي. وقال لي: باستطاعتك أخذ فتاتين لقضاء ليلة معهما إذا ما دفعت بضعة دولارات زيادة عن السعر المتعارف عليه. يومها، تألمت كثيراً لأنني لم أستطع أن أتخيل كيف يمكن لهؤلاء الصغيرات تحمّل هذا العرض المهين الذي يتكرّر عشرات المرات كل ليلة.

ولكن رحلتي لم تنته في محطة اليأس على أيّ حال؛ لقد قابلت مجموعة شجاعة من مناهضي العبودية الذين يأبون الاستسلام، لقد أشعروني بأنني قد عدت إلى الأيام الخوالي، فهؤلاء الأبطال الجدد، مثل مناهضي العبودية القدامى، لا يبددون جهودهم في إزالة العراقيل التي تعترض سبيل حركة مناهضة الرق فقط. بل إنهم، بكل بساطة، يرفضون أن يوجد في هذا العالم شخص يمكن

أن يُحتجز على أنه متاعاً لشخص آخر يمتلكه. ومن بين هؤلاء الأبطال لوسي بورجا، إنها تنقذ البنات والأولاد من شوارع مدينة ليما، عاصمة البيرو، في حين يمدُّ بادري سيزار لوديسرتويد العون إلى البنات والنساء الشابات المهربّات عن طريق عصابات منظمة (مافيات) في أوروبا الشرقية. أما أنا رودريغيز فتعمل على إغلاق بيوت الدعارة، وتحرير العمال السخرة من الحقول الزراعية في فلوريدا. بيد أن سوزان كوبيدج حرصت أن يكون مصير تجار الرقيق في السجون الفيدرالية، وأن يقضوا أحكاماً طويلة جزاءً لجرائمهم.

لم يذهب أيّ منا بعيداً بحثاً عن مُستعبدين، ولم يكن في نيّة أيّ منا أن يكون مناهضاً للعبودية. وكل ما فعلناه هو مدّ يد العون إلى لاجئ فقير، أو إلى طفل شوارع مشرد، أو إلى أحد الناجين الباحثين عن العدالة بعد تعرضه إلى أبشع صور الاتجار بالبشر. إن الانتقال من عمل إنساني إلى المطالبة بإنصاف ضحايا العبودية والاتجار بالبشر، هو الجامع المشترك بين هؤلاء المناهضين للرق. وقد هدفت أن أجعل هذا الكتاب دليلاً لمناهضي العبودية الجدد. ولهذا، فإنني لا أزعّم أنه دراسة شاملة للعبودية في القرن الحادي والعشرين، سواء داخل الولايات المتحدة أو في أنحاء العالم كلّ. إن هذا الكتاب يتتبّع مسار هؤلاء المناهضين الاستثنائيين في مواقعهم المختلفة؛ إنه يصف مشاعر الضحايا الذين وقعوا في شرك العبودية، كما يستعرض أمثلة وحالات من التاريخ والقوى الاجتماعية التي كانت تتحكم بتجارة العبيد. وإضافة إلى ذلك، يطلعنا هذا الكتاب على كيفية لجوء تجار الرقيق، الذين يلاحقهم المناهضون، إلى القوة والعنف لاستغلال الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة. كما يرشدنا إلى الاستراتيجيات التي استخدمها المناهضون للعبودية من أجل تحرير المُستعبدين.

ويتبين لنا من هذه الحكايات أن مناهضي العبودية الجدد ليسوا من قالب واحد؛ فالنساء اللواتي يحتضنّ الأطفال المحاربين في أوغندا، يعملن في عالم

مختلف عن عالم مناهضي العبودية في مدينة لوس أنجلوس، والذين يسعون لتحرير عمال السخرة، والأعمال القسرية في مصانع الملابس. وسنرى أيضاً كيف أن رساماً تايلندياً يوفّر الملجأ والمأوى للأطفال المهريين عبر حدود بورما. في حين يلجأ محام مولود في أمريكا إلى النظام القضائي لتحرير قرية كاملة في أنحاء أخرى من جنوب آسيا. ويعتمد بعض هؤلاء المناهضين للعبودية في عملهم على إيمانهم بالله. في حين يستند آخرون على مخزون الحب في داخلهم، وثقتهم في النظام القضائي.

وبالرغم من مواقفهم الفريدة، فإن هؤلاء المناهضين يشتركون في فهم دورهم التاريخي، إذ يدركون أن حرية الإنسان تقف عند مفترق طرق مصيري في هذه الأيام. ففي هذا العالم، هناك قوى نافذة تريد تحويل البشر إلى بضاعة يمكن بيعها وشراؤها كأى سلعة مادية أخرى. إن رفع شعار ليس للبيع يؤكد على أن لكل إنسان حقاً غير قابل للتصرف في أن يكون حراً كما خلقه الله.

إن هدفي الرئيس من هذا الكتاب هو تحفيز الآخرين ليعلموا: أنا لست للبيع، أنت لست للبيع، ويجب ألا يكون أي إنسان سلعة للبيع. ولا شك أن المناهضين للعبودية الذين يتناول نشاطهم هذا الكتاب هم أشخاص استثنائيون، ولكنهم لا يستطيعون الانتصار في هذه المعركة لوحدهم؛ سيُغلبون ويُقهرون إن لم نقدّم لهم الدعم والمساعدة، كما أنهم يحتاجون إلى متطوعين جدد لمناصرتهم في كفاحهم لإلغاء العبودية.

تقدّم هذه الطبعة الجديدة من كتاب «ليس للبيع» دراسات حالات وبحوثاً حديثة. والأهم من ذلك أنني أرّخت في هذه الطبعة لحركة مناهضة العبودية الناشئة حول العالم. لقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في اليوم نفسه الذي انطلقت فيه حملة ليس للبيع. وسوف تقرأ في الصفحات اللاحقة كيف مكّنت هذه الحملة الشخصيات الرئيسية الواردة في النسخة الأولى من مواصلة

أعمالهم البطولية. وقد حققنا انتصارات باهرة، ومنها، المشاركة مع كرونام Kru Nam لبناء قرية لأكثر من 125 طفلاً تحرروا على يد هذه السيدة في شمال تايلند. كما أنشأنا فريقاً مع لوسي بورجا Lucy Borja لتأمين مأوى ومستقبل جديد للمئات من أطفال الشوارع المشردين في ليما، عاصمة البيرو. كما أنشأنا أكثر من 40 مكتباً إقليمياً في أمريكا الشمالية لمتابعة حالات الاتجار بالبشر، وتوثيقها وتعيين محامين حسب خطط عمل وبرامج إقليمية.

وبهذا الخصوص، فإن الطبعة الثانية توضح بجلاء أن نسائم الحرية توحد الشعوب على مستوى العالم، ذلك أنه لم يعد بمقدورنا بعد الآن الوقوف متفرجين، في الوقت الذي يعيش فيه ملايين الأفراد في مستنقع العبودية. وإن أردنا تغيير هذا الوضع، فعلياً عدم الاكتفاء بالأقوال، بل لا بد أن يُترجم ذلك فعلاً وعملاً.

وكثيراً ما يقول طلابي في جامعة سان فرانسيسكو أنهم يشعرون بأنهم ولدوا في الزمن الخطأ بعدما حسمت جميع القضايا المهمة في التاريخ. وهم محقون في ذلك، لأننا وصلنا إلى مرحلة مصيرية في النضال من أجل حرية الإنسان. لقد ارتفعت الستارة، والمستقبل ينتظر ما سيأتي.

وربما يتساءل كل منا كيف كان من الممكن أن نتصرف في خضم الصراعات المصيرية في التاريخ الإنساني. هل نثور، ونصمد، ونكون في عداد الشجعان؟

كيف كان من الممكن أن نتصرف في عام 1942 ونحن نرى الجرائم التي يقترفها الجنود النازيون؟ هل كنا سنقوم بدور المخبرين أو المتفرجين الذين يتظاهرون بالغباء وهم يشاهدون ما يجري من وراء زجاج نوافذهم؟

وأتصور أننا عشنا في ولاية تينيسي في عام 1955، عندما وقفت هاريت توبمان التي ولدت في العبودية أمام باب بيتنا وقالت: إننا نقوم بتهريب العبيد الفارين عبر سكة حديد تحت الأرض، ونحن نحتاج إلى بيوت آمنة، فيها نختبي

ونستريح ونأكل. لقد أبلغنا النشطاء في حركة تحرير العبيد أنكم مستعدون لفتح بيتكم كنقطة مرور. فهل ستساعدوننا؟ لو أنها جاءت ووقفت أمام بابنا وقالت هذا، فإننا سوف نكون أمام لحظة الحقيقة؛ فهل كنا قد عبرنا عن رأينا ووقفنا إلى جانب الحق؟

في بعض الأوقات نقرأ التاريخ، ولكن في بعضها الآخر نصنعه. إننا نعيش الآن في إحدى اللحظات المصيرية في الصراع من أجل الحرية الإنسانية، ولذلك، فلسنا بحاجة إلى تخيل كيف كان من الممكن أن يكون ردنا عند مواجهة لحظة الحقيقة. نحن العاملون على خشبة المسرح، وباستطاعتنا تغيير رياح التاريخ بأفعالنا. وسوف تنظر الأجيال القادمة إلى الوراء لتحكم على خياراتنا التي اتخذناها؛ محفزة لهم أم محبطة.

ربما تعتقد أنني أبالغ في الأمر، ولكني لا أعرف أي طريقة أخرى للتعبير عن ضرورة الإسراع بإنقاذ ملايين الأطفال الذين يُجبرون على بيع أجسادهم لمن يستغلونهم جنسياً، أو الذين يُكرهون على الكد في المصانع أو الحقول الزراعية. وليس أفضح من التذليل على هذا الوضع المأساوي أن أربعين ألف طفل اختطفوا في أوغندا، وحُولوا رغماً عنهم إلى مقاتلين أو إلى عبيد جنس.

لقد أصبح مصير الأطفال حول العالم على المحك. وهؤلاء الأطفال عاجزون عن التحرر وكسر نير عبوديتهم. وكما لاحظ السياسي والفيلسوف الإيرلندي Edmund Burke إدموند بيرك قبل قرنين: «الشيء الوحيد الضروري لانتصار الشيطان هو بقاء الخيبرين مكتوفي الأيدي».